

شكلية النظم السياسية الغربية في مناقشة أسلحة الدمار الشامل

جلال امين *

■ كان طريفاً ومؤسفاً في الوقت نفسه، ما حدث في بريطانيا في الأيام القليلة الماضية، من مناقشات حول ما فعلته الحكومة البريطانية لخداع الرأي العام لتبرير حربها ضد العراق من دون وجود أي مبرر حقيقي.
قادت الحملة ضد حكومة بلير جريدة «الإنديبنتن» التي تكاد ان تكون اليوم اكثر الصحف اليومية البريطانية تمتعاً بالاستقلال الحقيقي في الرأي، كما يدل اسمها، فقد تساءلت الصحيفة بصوت عال، ويوماً بعد يوم، بمجرد ان تم الاحتلال واستقر الجنود الأميركيون والبريطانيون على ارض العراق: اين اسلحة الدمار الشامل التي زعمتم وجودها في العراق، واعلنت الحرب باسمها، لقد دخلت العراق لتدميرها، بعد ان اكدتم وجودها، ثم تبين انكم لم تجدوا شيئاً منها.

ثم ابرزت الصحيفة في شكل واضح ما ادّاعه احد برامج الإذاعة البريطانية BBC من أن مسؤولاً كبيراً في هيئة الاستخبارات البريطانية ذكر ان حكومة بلير طلبت منه ان يعيد صوغ التقرير

من الديمقراطية الماهوية الى الديمقراطية الوظيفية

رفيق عبدالمسلم *

■ ثمة اتجاه غالب على دوائر البحث الأكاديمي ورجال السياسة والإعلام سواء في الولايات المتحدة الأميركية أو في البلدان الأوروبية يميل إلى صيغ الديمقراطية بـقيم ثقافية ومعيارية صارمة المعالم والحدود وقوامها الأخلاق العلمانية والليبرالية، وهذا ما يعبر عنه عادة بمقولة الثقافة السياسية الديمقراطية، والتي يقصدون بها غالباً القيم السياسية الليبرالية ذات المبادئ المسيحية المعلنة على نحو ما صاغه مفكرو الأنوار. وهكذا تكف الديمقراطية عن ان تكون مجرد أداة للحكم وأداة للثأن العام، لتصبح منظومة ايديولوجية كبرى لا تختلف كثيراً عن الليبراليات الشمولية.

وبدل أن تكون الديمقراطية أداة لدلاوة الشأن العام وإدخال أوسع القوى الاجتماعية الى ساحة الحركة السياسية أصبحت مدخلاً للاحتكار والإقصاء، والغريب أن الذين يعكفون اليوم على رسم الحدود وتوزيع العلامات المسجلة هم في صورتهم الغالبية من بقايا يساريين متشددين.

واحدة من أهم الخصال التي توافر عليها النظام الديمقراطي على سواته، هو النجاعة العملية التي أنشأتها من جهة قدرته على انمصاص التوترات والصراعات والبنيفة والمهلكة في مجال السياسة من خلال ابتداء البية التداول السلمي على السلطة، أي قدرة الديمقراطية على تحويل العدو الى مجرد خصم سياسي يمكن مراقبته بالبحجة وحشد الاموات، التي جانباً قدرته العملية على التخفيف من نزوعات التطرف والعنف بسبب ما يوفره من مساحة واسعة للمناقرة والمقارعة التداولية والحوارية.

وعدا اسراً لازماً تجريد الديمقراطية من الحمولة

الف وجه الألف عام

«غيوم والأميرة ماري» لفان ديك:

أمراء ولكن أطفال

■ كان الرسام انطونيس فان ديك فلامنكياً، ولد في انغير، التي تقع اليوم في بلجيكا، وهو اعتبر دائماً واحداً من أقطاب المدرسة الفلامنكية في الرسم. مع هذا أمضى فان ديك السنوات الأخيرة من حياته في انكلترا، حيث مارس فن الرسم بنجاح كبير جعل منه رائداً أساسياً من رواد مدرسة «البورتريه» الانكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكان من تلاميذ فان ديك الكبار في هذا المجال الرسام سير بيتر يلي. غير أن هذا لم يكن كل ما يتعلق بحياة فان ديك في انكلترا، ذلك أن هذا الرسام الباروكي المؤسس، وصديق يار – بول روبنز، كان في انكلترا، الرسام الخاص ببلاط تشارلز الأول، عامل تلك البلاد الذي استضافه وقضه على الرسامين المحليين، جاعلاً منه جزءاً من الحاشية العائلية. وانطونويس فان ديك، بادل التكريم بالتكريم، حيث أنه، خلال السنوات الأخيرة لك من حياته وقف عمله كله على رسم الملك وعائلته والأمراء، في لوحات خلدهم بقدر ما خلده، وأضافه طابع العظمة الملكية في اللوحة.

التي قدمنه هيئة الاستخبارات عن الأسلحة التي يملكها العراق، والخطر الذي يشكله نظام صدام حسين على العالم، بحيث يصبح التقرير «أكثر إثارة»، ومن ثم يمكن استخدامه في شكل أكثر فاعلية في تبرير الهجوم على العراق.

أصرت الصحيفة على ضرورة التحقيق في الأمر، ما يعني بكل بساطة ان الحكومة البريطانية تخدع الناس عن عمد لتجعلهم يقبلون الدخول في حرب والتضحية بابنائهم من دون سبب مقبول. وتلقى البرلمان البريطاني هذا المطلب وشكل لجنة للتحقيق في الأمر. بدت حكومة بلير في موقف لا تحسد عليه أبداً. فالإتهام خطير، والضوء الذي يلقيه على حقيقة الديمقراطية في بريطانيا لا يكشف عن شيء مشرف بالمرء. فإذا كان الرأي العام يجري التلاعب به على هذا النحو، فما معنى الزعم أن القرارات، بما في ذلك قرارات بهذه الدرجة من الأهمية، تعبر عن إرادة الشعب، وأن الشعب هو مصدر السلطات؟

حارث الحكومة بعض الوقت في ما تصنع ازاء هذا الإتهام، ثم قررت ان يتصدى للاثام رجل محنت، ومدرّب على مثل هذه الأمور هو الستير كامبيل الذي يعمل مستشاراً لرئيس الوزراء لشؤون

الصحافة والإعلام، وإن كان يطلق على وظفته اسم ضخم هو «مدير الاتصالات والشؤون الاستراتيجية». وكانت الطريقة التي اتبعها السيد كامبيل بسيطة للغاية، لكنها نجحت نجاحاً باهراً في تحويل الانظار عن إتهام الحكومة هذا الإتهام الخطير. الطريقة هي ان يقوم هو بتوجيه الإتهام إلى هيئة الإذاعة البريطانية BBC مستخدماً الفاظاً شديدة وقاسية، ليقام احد رجالها باقتطاف قول زعم أنه صابر من رجل في الاستخبارات البريطانية ويحمل الإتهام للحكومة. فإذا بالقضية تتحول من السؤال: هل كذبت الحكومة البريطانية على الناس لتبرير الحرب؟ لسؤال مختلف تماماً هو: هل من حق هيئة الإذاعة البريطانية أن تدّيع تصريحاً منسوباً الى أحد رجال الاستخبارات من دون التحقق من صحة مصدره، ومن دون التحقيق في ما اذا كان مضمون التصريح صحيحاً أو غير صحيح؟

وكانت النتيجة بالطبع ان قامت هيئة الإذاعة البريطانية تدافع عن نفسها وترد بشدة على السيد كامبيل، فبره هو بدوره على الإذاعة البريطانية وشدة مماثلة، فإذا بالصحافة، والناس معها، تنسى الوجهة الشبه بأنها أكبر بكثير من الوجهة الاختلاف... الخ. اشغل الناس عن هذه القضايا بقضايا أخرى اقل أهمية بكثير،

الموقف الإسرائيلي - الأميركي: تفكيك لا هدنة

خالد الحروب *

■ موقف الإدارة الأميركية الحالية من «حماس»، كما تقول «انترناشيونال هيرالد تريبيون»، هو نسخة طبع الأصل من موقف اسرائيل. في السنوات السابقة كانت الإدارات الأميركية تأخذ مسافة، تكل أو تكبر، عن الموقف الإسرائيلي التقليدي الذي يعتبر «حماس» منظمة «أرهابية». كان هناك تفريق بين جناح «حماس» العسكري، كتائب عز الدين القسام، والأجنحة السياسية والاجتماعية لها (كما هو الموقف الأوروبي الحالي من الحركة). وكانت اسرائيل تضغط على الإدارات الأميركية لاتخاذ موقف واحد، غير تجزئي، من «حماس» وضما إلى القائمة السنوية السيئة السمعت حول «الدول والمنظمات الإرهابية أو التي ترعى الإرهاب»، بحسب الرؤية الأميركية. إدارة بوش، «العسكري» كتائب عز الدين هي الصيغة للوكودية الأميركية غير المسبوقة للسياسة الإسرائيلية. حيث لا تتبنى وحسب الموقف الإسرائيلي، بل الجانب اللوكودي منه. وفي شأن «حماس» كانت واشنطن تريد وتطلب على مدار السنوات الماضية، سواء من السلطة الفلسطينية أو من الدول العربية المحيطة، ان يُصار إلى ممارسة ضغط على «حماس» لإيقاف عملياتها العسكرية والتفجيرات التي تقوم بها وسط المدن الإسرائيلية - أي بلغة الفلسطينيين، الإلقاء على «هذه»، العملية السلمية، فرصة للنقد. وكان الحصول على تلك الهدنة هدفاً كبيراً سواء للسلطة الفلسطينية ام لإسرائيل ام للولايات المتحدة. وكان وقف «حماس»، عملياتها في أي وقت، وما زال، عاملاً مهماً في عهد إيهال الرانغ الإسرائيلي، خصوصاً في عهد شارون، التي بها تسوّع كل الاعتداءات الوحشية على الفلسطينيين، والإلقاء على الاحتلال، وتوسيع الاستيطان وتكريس الأمر ونحن ممن يزعم أن ما يسمى للخطوات الفلسطينية، وإما اختلال ذريعة أخرى والتمسك بها للتهرب من أي التزامات شكلية أو حقيقية نفرضها «خريطة الطريق». اسرائيل اختارت الخيار الثاني، والولايات المتحدة بعمتها قورا، وأن ذلك من طريق إزاحة الموقف الثنائي الإسرائيلي - الأميركي وتغييره من اشتراط «وقف أعمال العنف والإرهاب، بحسب تغييراتهم، خطوة أساسية واولية للانتقال إلى أي مفاوضات مع الفلسطينيين». الإزاحة التي حصلت في الأونة الأخيرة خطيرة وكبيرة تتمثل في تقللن متتابعتين تخضعان كما يبدو لتنسيق دقيق

الحياة

حكومة الدول الغربية، الشهيرة بالديموقراطية، في حمل شعوبها على الظن بانهم يحكمون بالفعل بحكومات ديموقراطية، والحقيقة أن معظم القرارات الرئيسية (بل المصرية) تتخذ في الواقع من وراء ظهورهم؟

لم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من اتقان فنون وأساليب معينة، أي انها مسألة «تكتيك» لا أكثر ولا أقل، أحرزت فيها هذه الدول تقدماً مظلماً أحرزته في مجالات تكنولوجياية أخرى، وهو «تكتيك» يتعلق بأساليب حكم الشعوب. اشغل الناس بخلافات ثانوية، واصرف انظارهم عن القضايا المهمة، مثل قضايا الحرب والسلم، أو توزيع الدخل والثروة، أو استغلال شعوب العالم الثالث، أو ما اذا كان صدام حسين يعمل لحسابه ام لحساب دول أقوى منه، وهل كان هجومه على ايران ثم الكويت ارضاء لخصومه الشخصي ام تحقيقاً لمآرب أخرى لدول أخرى، بل قضايا مهمة أخرى مثل عما اذا كانت هناك فوارق حقيقية بين الأحزاب السياسية المتنافسة، كالحافظين والعامل، أو الجمهوريين والديموقراطيين، ام ان اوجه الشبه بينها أكبر بكثير من اوجه الاختلاف... الخ. اشغل الناس عن هذه القضايا بقضايا أخرى اقل أهمية بكثير،

* كاتب مصري.

من نوع الخلاف بين الحكومة وهيئة الإذاعة البريطانية، أو مسألة حصر أو جمع أصوات الناخبين في ولاية فلوريدا، أو حتى السفطة التي تورط فيها الرئيس الأميركي السابق كلينتون مع موفلفة البيت الأبيض... الخ. إذا نجحت في شغل الناس بذلك ضمنت أن ينشغلوا عن القضايا التي اتخذت فيها قرارك من دون استشارتهم.

قلت لنفسي أيضاً: «اما نحن في بلادنا العربية فقد ادرناك الحقيقة منذ وقت طويل، وقلنا إلى حقيقة اللبعية فلم تعد تنطلي علينا. أو الأرجح أن حكوماتنا لم تلغ بعد، لحسن الحظ، من التقدم التكنولوجي وتطوير اساليب الحكم و«ن الاتصالات والشؤون الاستراتيجية» ما بلغته الحكومات «الديموقراطية» في الغرب. فطبقت حكوماتنا في حكمنا وسائل بادية للغاية ومفضوحة تماماً، فإذا بنا نتفرج عليها ونضحك، نعم، إن حكوماتنا بدورها تفعل ما تشاء ولا تستشيرنا في القضايا المصرية، ولا في غيرها، لكنها لا تستطيع تضليلنا كما تفعل الحكومات «الديموقراطية» حقاً.

فلطوي لنا».

بقية الفصائل من السلاح، أو مجرد التفكير بتفكيك «حماس» لن يكون مهمة ستديرها أو تخرط فيها مباشرة الولايات المتحدة أو اسرائيل، بل ستحال إلى السلطة الفلسطينية للتطبيق، وسيُصار إلى «اختبار» جدية ونيات السلطة، «أداء ليس فقط «خريطة الطريق»، بل واي شروط وتعديات الأتار الإسرائيلية - اميركية جديدة بحسب نجاح أو فشل السلطة في مهمة تجريد «حماس» من سلاحها أو تصفيتها.

على الأرض، وفي ما خص قضية «خريطة الطريق»، يمكن ملاحظة ان العنصر الذي يحظى بالاهتمام الأكبر من زاوية التطبيق هو الموجهة إلى «التفكيك» فضلاً عن بعض «حماس»وشقيقاتها». فضلاً عن الضغوط الفلسطينية والإسرائيلية (الناجمة من ضغوط اميرك特ية واميركية أشد بالبطع) على «حماس» لإعلان هدنة، فإن الانسحابات الإسرائيلية (غزة بيت لحم أو...) هدفها الأساس تسليم أمم هذه المناطق للسلطة الفلسطينية في سبيل «الختبار»، وإرفقة مدى نجاحها في تطويق «حماس» بالدرجة الأولى. اما بقية

عناصر الخطة لا يبدو انها تغطي سوى اهمية ثانوية. فبعد حديث عن تفكيك المستوطنات، بل عن رياتتها، خصوصاً ان الحكومة الإسرائيلية اقرت في الأيام القليلة الماضية انشاء ١٢ مستوطنة جديدة. في المقابل يستمر الاستعراض الاعلامي في تفكيك بعض الكرافانات التي ضخم اسمها لتصبح «مستوطنات غير قانونية»، وبذلك أصبحت هذه المستوطنات مصدر «شريعة» غير مباحة للمستوطنات الأكبر والأخطر والأهم التي هي «قانونية»، عند مقارنتها بالصف الكرافاتي من المستوطنات.

الخطبة الكبرى في «خريطة الطريق» هي الخطبة نفسها التي حملتها اتفاقات اوسلو وكانت السبب في فشلها، وهي تاجيل الحقوق الفلسطينية الكبرى، وتخفيف القضية كلها في المنظر الأمني. وترجح المسألة من جوهرها السياسي الحقوقي الإنساني الناتج من احتلال عدواني عسكري، أي مجرد قضية امنية وخلايا عسكرية «إرهابية»، معناه تكرار الفصل الثانية. فهذه الآية تطعي اسرائيل، برضي اميركي مقرر، اليد الطولى، لأنها ستظل «مختبر» صلاحية الفلسطينيين لأن تفاوضوا معها، وتختار قدرتهم على فمع أنفسهم. وكل ما تتحدث في هذا الاختبار هو وصول الأمور إلى نقطة الانفجار والحرب الأهلية حدث عندها تنفكس اسرائيل الصعداء، وتضع ساقاً على ساق لسنوات طويلة مقبلة. ومن هنا يأتي الدفع الحسموس لـ«ستفزان «حماس» وبقيّة القوى لجرها للدفاع عن نفسها في وجه «استراتيجية» التجريد من السلاح ثم محاولة التفكيك.

* كاتب فلسطيني مقيم في بريطانيا.

في ذكرى رحيل فيصل الأول (٤ من ٦)

الدين والديموقراطية...ومستقبل العراق

الحسن بن طلال *

■ يعلم الجميع، بحكم العلم والخبرة معاً، أنَّ الديموقراطية ليست شيئاً يصنعه الدستور أو القانون؛ وإنّما إرادة الشعب والممارسة ومؤسسات المجتمع الأهلي (المدني). فإذا لم يكن الشعب العراقي، بمختلف فئاته، دور في صوغ هذا الدستور، فلن يقبل به أحد. ومن غير الممكن أن يتم تفعيل دور الشعب العراقي في المرحلة الرأئمة باتجاه بناء دولة ديموقراطية بغير إيمان أميركي صادق؛ بمعنى ألا تكون الديموقراطية الآتية على الطريق مجرد صورة ديموقراطية أو واجهة لنهب ثروات العراق وتدمير ثقافته وتزييف تاريخه وتدمير حاضره وتشويه مستقبله. لذلك فإن المطلوب أن يتم صوغ الدستور عراقياً، أو أن يشترك العراقيون في صوغه على أقل تقدير، لتكون له فرصة الحصول على موافقة حقيقية من الشعب. ولا ننسى حجم الكفايات في العراق؛ فنحن لسنا في القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين. إذا لم ينص الدستور الموعد على أن الشعب العراقي هو المصدر الأول والوحيد للسلطات، فلن يجدي بعد ذلك شيء. وإذا صرح أن نوح فيلدمان، الذي نيطب به مهمة ترؤس فريق صوغ الدستور في العراق، قد اقترح للعراق حكومة يمكن وصفاها بأنها نظام إسلامي للحكم من خلال مشاركة ديموقراطية وانتخاب تمثيلي، فإننا نكون على الطريق الصحيح حقاً، المؤدي إلى تقرير المصير من خلال اجراءات ذاتية للحكم. وإذا صرح أن هناك من يدعم إعساده بناء وزارة الأوقاف الإسلامية على أسس حديثة، وليس تدمير الوقف الإسلامي، فإن علينا أن نذكر - مع هذا - بأن خصوصية الموضوع لا تسمح بأن يتولاه الغرباء عرقاً وديناً وثقافة. إن أراء هؤلاء لن تكون موضع ترحيب أو قبول، لكن وجود هيئة عربية إسلامية سيطعي لهذا الجهد. إذا خلصت النيات وتطهرت المقاصد، مستغفّة ذات ذمّة عالية.

وما دام أنَّ الأمر لم يحسم بعد، فإن ثمة فائدة مرجوة من التذكير بأنّ تشويه الثقافة الدينية لأي شعب أو إلغاء الأوقاف الإسلامية سيكون مقدمة لإلغا، كل ما هو ديني إسلامي في العراق وليسقط ثقافة شعب العراق. وهذا لا يشكل انتهاك لحقوق الإنسان، بل تدخّلاً في أدق خصوصيات أي شعب، وإن وقع، لا سمح الله، فسبكون مقدمة تخبر عما سيكون من بقية الدول العربية والإسلامية. فليس من حق غير المسلم أن يقول للمسلم ما هو الإسلام، وكيف يجب أن يعبد الله، ولا كيف يعيش المسلم حياته الأسرية أو العامة!

وليس من الحكمة أبداً أن يتم تعريض الشعب عن ذاته ودينه وثقافته، وإن كان من المطلوب بالطبع أن يفتح الشعب على الخبرات الناجحة لكل الدول والمجتمعات والأديان. إن لدى العقد الديني الكثير ليقدمه، وإن العمل من خلال الإيمان الديني يعني الإثثار والتعاطف الإنساني. وهذا من أجمل واعظم ما يمكن أن يحققه الإنسان على سطح الأرض. من الضروري هنا أن نذكر بخصوصية الأماكن المقدسة بعامة، وفي العراق بخاصة. إن هذا بالضبط هو ما يجعل العراق مختلفاً كلياً عن أفغانستان؛ فصلاً عن اختلاف الوعي، والقدرة العلمية والإدارية وسواها. لذلك فإن العمل بتجاهل هذه الحقيقة، والتكفّر في العراق في شكل سريع وإيجابى على طريق مستقبل حقيقي، ستكون له عواقب وخيمة لا يطول انتظارها.

إن الطريق إلى الديموقراطية والوحدة الوطنية في العراق لا تمرّ قطعاً بإقصاء الدين عن حياة مجتمع هو من بين أكثر مجتمعات الأرض التزاماً بالدين. وفيه من مقدسات المسلمين الجفّ البشري وكريلاه وغيرهما. مثل هذا الإقصاء، بدعوة إقامة دولة علمانية، يعرف القوى الدينية والقيادات الشعبية إلى إشغال ثورة لا عهد لأمبريكا بها. الطريق الصحيح هو إقامة حوار ديني ومذهبي صحي وعلمي، يساهم في بناء ديموقراطية أساسها احترام المذهب الآخر والدين الآخر، والإيمان المطلق بأن الدين له والوطن للجميع. عندما سيكون الدين أداة بناء وأداة نفي لأي تطرف. إن أي شعب يحسن بالبطر على دينه يستعصم في الدفاع عنه. ولن يقصر الشعور بالخطر حينئذ على العراقيّين، بل سيشتمل الأمة العربية والإسلامية بأسرها؛ وسيكون بيد المتطرفين والمعتدلين حد سواء دليل على أن الولايات المتحدة لا تسعى إلى نهب ثروات العرب والمسلمين فقط، وإنّما أيضاً إلى محاربة المسلمين والإسلام حتى كسر العظم.

إن أي إدارة أو حكومة أو دستور أو تنظيم لا يكفل الاحترام العميق للأديان ودورها في المجتمع العربي العراقي سيكون مصيره الانهيار؛ وسيقاتل الشعب من أجل حرّيته الدينية وحقّه في تنظيم حياته وفقّ قيمه، لا وفقّ قيم غربية.

لقد تمكّنت أخيراً [٢٨/٥/٢٠٠٣] من منظمّة المؤيّر العالمي للأديان من أجل السلام، التي أنشئت بأن أكون مقرّرها، وهي منظمة معترف بها في الأمم المتّحدة وتشكّل أكبر كتلّ يمثلّ الديانات الرئيسية في العالم، من جمع ممثلي الأديان والأذهاب المذهبيّة الدنيّة العراقيّة بكلّ أطيافها في عمان، الثامنة الأولى منذ عام ١٩٨٩. وكان البحث يتركّز حول دور الأديان في الإعلام من مكانة الكرامة الإنسانية وتعزيز الأمن الإنسانيّ، كما ركّز المجلس على القيم الإنسانيّة التي تجمع بين الناس من كلّ دين ومذهب، وعلى «تعليم الجوامع وإحترام الفروق»، والعمل على توفير حقّ تقرير المصير الديني والثقافي والاجتماعي للإنسان العراقي، وتوفير المساعدات الإنسانية للمواطنين في العراق وتكثيفها في ظل الأزمة الرأئمة. فهل لنا أن نتعلم من هذا الدرس القيمة الإيجابية للدين ودوره في بناء مجتمع ديموقراطيّ؟

* رئيس منتدى الفكر العربيّ وراعيه، رئيس نادي روما.

الخطوبة هذا اقيم عامذاك (١٦٤١) في لندن...

والمناسبة قدم الأمير غيوم إلى خطيبته، تلك اللبنة الضخمة التي علقتها على صدر رداثها في اللوحة. ونعرف طبعاً أن الاميريين الشابين قد زوجا بعد فترة، وأن الطفل الذي انجباها كان هو الذي سيحكم انكلترا تحت اسم غيوم الثالث. هنا في هذه البورتريه المزودة، عرف انطونويس فان ديك كيف يحل من جديد صعوبة التعبير توفيقاً بين الطابع الرسمي والطابع الحميم للمناسبة، في الآن نفسه. فهو كان يعرف انه يرسم أميرين خطبان، لكنه في الوقت نفسه كان يعرف انه يرسم طفلين وعليه أن يسبغ عليهما كل الطفولة التي تحملها تعابيرهما في الحقيقة. وهكذا، إذ ما تأملنا هذه اللوحة، ستجد كيف أن الثياب التي يرتديها الأمير والأميرة وهي مصنوعة من حرير فخم مطرز، تأتي مع الوقفة الملكية الصاخبة التي يفها الاثنان، لتركز على صبا الاميرين الذي قد يبدو مختبراً للشفقة أكثر مما هو متخبر للاعجاب. وكذلك لا بد لنا من ملاحظة أن النظرة التي يوجهها الاميران الى المشاهد اللوحة، تبدو غير مؤكدة... غامضة فيها قدر كبير من التشوش، درس الرسم لدى اميركي فان ديك، كما نرى، أن درجة ان من ينظر الى الاميريين يرى على الفور ان كلا منهما واع تماماً لمكانته ولما سيكون عما قريب، لكنهما معا لا يزالان خجولين حيين، يبحثان لدى المشاهد عن نظرة تواطؤ، أو بالأحرى نظرة تعاطف، قد يريان فيها، وحدهما، ليس لما هما قدماان عليه

وهما يعرفان ان ليس لهما يد في ذلك كله. فهما متحف «ريكس» في امستردام، ويبلغ عرضها أقل قليلاً من متر ارتفاعها نحو ١٤٢سم. ● هذه اللوحة رسمها انطونويس فان ديك، لكي يخلد من خلالها ذكرى خطوبة ابنة تشارلز الأول، التي كانت في ذلك الحين في العاشرة من عمرها، الى أمير اورانج الشاب. وحفل



«غيوم والأميرة ماري» لفان ديك (١٦٤١).

أي قبل شهر قليلة من موته ما يجعلها واحدة من آخر أعماله، قد تكون الأكثر تمثيلاً على فن عرف كيف يزاوج بين مكانة شخصياته وعواطفها، بين العظمة المنحوخة من لوحة ترسمها، والمشاعر الإنسانية التي كان الرسام شديد الحرص على رسمها بها. وهذه اللوحة هي التي تسمى عادة «غيوم، أمير اورانج

عظمته الملكية، بل يضفي هذه العظمة خاصة على غيوم نفسه إذ يبدو وكأنه يقدم لنا نحن مشاهديها، خطيبته.

● والحقيقة أن انطونويس فان ديك، في ما وراء تعبيره عن كل هذه المواقف والمشاعر المختلفة، أثر أن يعود في اللوحة أيضاً إلى وظيفتها الأساسية: تخليد تلك اللحظة الملكية، من هنا نراه كيف يستغل كل جزء من اللوحة وكل تفصيل من تفاصيلها لكي يشدد على الطابع التزييني، وهكذا يشتغل على تفاصيل انعكاس الضوء على حرير الثياب، ويعارض أحمر وذهبي ثوب الأمير، ببرودة اللون الأخضر لثوب الأميرة، جاعلاً من العقد الذي يحيط بعنق هذه الأخيرة مركز جذب للصورة يشي حقاً بمكانتها المقبلة، جاءها وثرأ، ولكن كذلك للأمير كزوجة.

● كما ذكرنا، مات انطونويس فان ديك، في لندن بعيداً من دياره، بعد شهر قليلة من تنفيذ هذه اللوحة. وكان حين مات في العام ١٦٤١ الثمانية والأربعين من عمره، في المولد في العام ١٥٩٩، وفان ديك الذي صار خلال فترة نضوجه واحداً من أكبر رسامي الباروك في أوروبا الشمالية، درس الرسم لدى اميركي فان بالن، ثم أضفى مساعداً لروبنز وتميذلاً له، قبل أن يصبح صديقه لفترة لم تطل من الزمن إلى أية حال. وفان ديك بعد رحلة قام بها إلى إيطاليا في عشرينات القرن السابع عشر، عثر، عثر رسماً رسمياً لبلطاز بروكس. وفي العام ١٦٢٢ زار فان ديك انكلترا للمرة الثانية، لكنه هذه المرة صار رسماً رسمياً لبلطاض، وظل فيها حتى نهاية حياته ملحقاً بقصر تشارلز الأول رساماً رسمياً له. وهو خلال تلك الفترة لم يزر وطنه الأصلي إلا في شكل عارض.

ابراهيم العريس